



مصطلح «القطب»: أحمد البدوي نموذجًا تطبيقيًا

إعداد: هيئة التحرير

الصوفية، لها حكام وولاة وأعوان، يديرون شؤون الكون من خلف حجاب الغيب. ويقف على رأس هذه الدولة «القطب»، الذي يوصف بأنه «موضع نظر الله» و«مدار العالم»، ثم «الأوتاد» الأربعة الذين يحفظون أركان العالم، ثم «الأبدال» الذين يحفظون الأقاليم، ثم «النقباء» الذين يحملون أثقال الخلائق، ثم «النقباء» الذين يعرفون خفايا الضمائر. ولأن المقام مقام الحديث عن السيد البدوي في مولد سنوي تزحف إليه جموع المريدين، فإن هذه القراءة ستقتصر على مصطلح «القطب»، بوصفه رأس هذه الدولة الباطنية، وبوصفه اللقب الأبرز الذي يُطلق على البدوي، على أن نَتبع هذا المقال بمقالات أخرى تتناول بقية مصطلحات «الدولة الباطنية».

«القطب» في اللغة هو «ما عليه مدار الشيء وملاكه»، وأصله من «قطب الرحي» الذي تدور عليه رحاها، ثم استُعيير للدلالة على «سيد القوم الذي تدور عليه أمورهم»^(١)، المعنى اللغوي يقوم على المركزية والمدار في إدارة شؤون دينوية بحتة، لا على وظيفة غيبية. غير أن الصوفية نقلوا هذا المصطلح من

تستعد محافظة طنطا بمصر لاستقبال الزائرين في مولد السيد أحمد البدوي، وتتحول المدينة في شهر أكتوبر من كل عام إلى قبلة المريدين، حيث تشارك نحو ست وسبعين طريقة صوفية في الاحتفال بمولد «شيخ العرب»، الذي يُعد أحد أقطاب الولاية الأربعة لدى المتصوفين، بجانب عبد القادر الجيلاني، وإبراهيم الدسوقي، وأحمد الرفاعي. ويُقام له احتفالان سنويًا: المولد الرجبي في شهر مايو، والمولد الكبير في شهر أكتوبر.

فمن هو هذا «القطب» الذي يزحف إليه الألوف؟ إنه أحمد بن علي بن إبراهيم البدوي الحسيني، المولود في فاس عام ٥٩٦هـ، والمتوفى في طنطا عام ٦٧٥هـ. ويصفه مريدوه بأنه «قطب أقطاب زمانه»، و«الواحد الذي يدور عليه أمر عالم الكون كله»، و«محل نظر الله من خلقه».

غير أن هذه الألقاب ليست مجرد مدائح عابرة، بل هي مصطلحات تنتمي إلى منظومة كاملة يُطلق عليها «الدولة الباطنية» الصوفية، وهي منظومة غيبية يتصورها

١ - لسان العرب، مادة «قطب»، ٦٨٠/١.

السَّيِّدُ الْبَدَوِيُّ

دراسة نقدية

تأليف
د. عبدالله صابر

ويعلم ما فيها، ويتصرف فيها. ثم يصرح ابن عربي بما هو أخطر من ذلك، فيقول عن القطب: «وبيده قسمة الأرزاق والآجال، وإليه تنتهي حوائج الخلاق»، وهو خليفة الله في أرضه، يحكم بما يشاء ويفعل ما يريد^(٥)، وهذه العبارة لا تقبل التأويل: قسمة الأرزاق وتحديد الآجال وقضاء الحوائج والحكم المطلق كلها من خصائص الله وحده. والقرآن يقرر: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ [الرعد: ٢٦]، ويقول: ﴿وَمَا يُعَمَّرُ مِنْ مُّعَمَّرٍ وَلَا يُنْقَصُ مِنْ عُمُرِهِ إِلَّا فِي كِتَابٍ﴾ [فاطر: ١١]. ويقول الهجويري في «كشف المحجوب» إن القطب: «له التصريف في جميع الموجودات، من العرش إلى الثرى»^(٦)، وهذه أصح عبارة في دعوى التحكم الكوني: من العرش إلى الثرى أي الكون كله بطبقاته. ثم يتطور الأمر من التصريف الفردي إلى «ديوان» أو «مجلس» للأولياء، يُدار فيه حكم الكون. يقول ابن عربي: «فإن الله تعالى جعل للقطب ديواناً من الأبدال والأوتاد والنجباء، يجتمعون في كل ليلة عند القطب، فينظرون في المصالح، ويقسمون الأرزاق، ويقضون الحوائج»^(٧).

ويقول الكاشاني: «القطب له التأثير في قلوب العباد، يقبلها كيف يشاء، ويصرفها حيث يريد»^(٨)، وهذه دعوى أخطر من سابقتها، لأنها تعني أن إيمان الناس وضلالهم بيد القطب. وقد بلغ الغلو ذروته عند بعضهم حين نسب إلى القطب الإحياء والإماتة. يقول الشعراني في «اليواقيت والجواهر»: «القطب له التصرف في الحياة والموت، يحيي من يشاء ويميت من يشاء»^(٩).

كل ما سبق لم يكن حديثاً نظرياً مجرداً، بل هو مفاتيح لفهم شخصية السيد البدوي، فهو الذي يصفه مريدوه بأنه «قطب أقطاب زمانه»، وينسب إليه شعر يقول فيه:

أنا أحمد البدوي غوث لا خفاء على الأقطاب صحت ولايتي

وتصمّر كتب الصوفية على أن البدوي لم يكن مجرد ولي عادي، بل بلغ رتبة «القطبانية العظمى». يقول د. جودة أبو اليزيد في كتابه (القطب النبوي السيد أحمد البدوي): «كان الواحد الذي يدور عليه أمر عالم الكون كله؛ لكونه محل نظر الله تعالى من خلقه، وبه حفظ الله الوجود على عالم

دلالتة المجازية إلى عقيدة غيبية كاملة، فعرفه الجرجاني بأنه «عبارة عن الواحد الذي هو موضع نظر الله من العالم في كل زمان... وهو على قلب إسرافيل عليه السلام»^(١٠)، فما معنى أن يكون مخلوق «موضع نظر الله»؟ والله سبحانه ﴿يَكُلُّ شَيْءٌ مَّحِيطٌ﴾ [فصلت: ٥٤]، وإحاطته لا تحتاج إلى «موضع».

ثم ما معنى أن يكون القطب «على قلب إسرافيل»؟ إن إسرافيل عليه السلام ملك من الملائكة المكرمين، لا ينسب إليه قلب ولي يتصرف في الكون بإذنه. وزاد الجرجاني على ذلك قوله: «أعطاه الطلسم الأعظم من لدنه، وهو يسري في الكون وأعيانه الباطنة والظاهرة سريان الروح في الجسد»^(١١)، وهذه لغة غير مألوفة في الخطاب الشرعي، لأن ظاهرها يوحي بأن الولاية تنال بطلاسم وأسرار، لا باتباع وعبودية.

ويقول ابن عربي في «الفتوحات المكية» إن القطب: «مركز الدائرة ومحيطها ومرآة الحق، عليه مدار العالم، له رقائق ممتدة إلى جميع قلوب الخلاق»^(١٢)، فكيف يكون المخلوق «مرآة الحق»؟ وما معنى «رقائق ممتدة إلى جميع قلوب الخلاق»؟ إنها تصور لمخلوق يتصل بقلوب البشر جميعاً،

٢ - التعريفات، دار الفضيلة، القاهرة، ص ١٤٩.

٣ - المصدر السابق، ص ٢٠٩.

٤ - الفتوحات المكية، تحقيق: أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤٢٠هـ، ٤٠٤/٢.

٥ - المصدر السابق، ٤٠/٣.

٦ - كشف المحجوب، ترجمة: د. إسعاد عبد الهادي قنديل، دار النهضة العربية، بيروت، ط ٢، ١٩٨٠م، ص ٢١٤.

٧ - الفتوحات المكية، ٤٠٤/٢.

٨ - اصطلاحات الصوفية، الكاشاني، تحقيق: د. محمد كمال جعفر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨١م، ص ١٨.

٩ - اليواقيت والجواهر في بيان عقائد الأكابر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ، ٧٩/٢.

الدنيا... وهو الذي بايعته العوامل العلوية والسفلية قطباً لها وخليفة عليها»^(١٠).

وتتنوع «كراماته» في المصادر الصوفية على نحو يُظهر التصريف الفعلي في الكون، فيروي عبد الصمد زين الدين في «الجواهر السنية» أن «البدوي غسّل نفسه بنفسه بعد موته»^(١١). وتذكر مصادرهم أنه «كان يخسف الأرض إذا أراد»، وتذكر «الطبقات الكبرى» للشعراني أن البدوي لما طلب بعض أتباعه رؤية وجهه كشف له اللثام فصعق ومات في الحال^(١٢). ويذكر في التراجم الصوفية المتأخرة إسناد كرامات له تشمل إحياء الموتى، وإبراء المرضى، وإعادة البصر إلى العميان^(١٣).

غير أن هذه الصورة الأسطورية لا تصمد أمام الاعترافات الموثقة والمدونة في كتب التراجم والتواريخ. فيروي عبد الصمد زين الدين الصوفي في «الجواهر السنية» أن قاضي القضاة ابن دقيق العيد «سمع بالشيخ وأحواله، فنزل إليه واجتمع به بناحية طنطا، وقال له: يا أحمد البدوي، هذا الحال الذي أنت فيه ما هو مشكور، فإنه مخالف للشرع الشريف؛ فإنك لا تصلي ولا تحضر الجماعة، وما هذه طريقة الصالحين»^(١٤). ومن المعلوم أن المؤلفين الصوفية لم يوردوا هذه الرواية لنقد البدوي، بل لجعلها من باب «الكرامات» والتسليم لأهل الأحوال، فهي إقرار منهم بصحة الواقعة مع تغيير تأويلها من «مخالفة شرعية» إلى «حال». وهذا في حد ذاته اعتراف بأن الفعل قد وقع. ويذكر ابن حجر الهيتمي في «الفتاوى الحديثية» اعتراضات العلماء على أحوال البدوي وكونه كان «لا يشهد الصلوات الخمس» في بعض أوقاته^(١٥). وينقل ابن العماد الحنبلي في «شذرات الذهب» عن ابن دقيق العيد أنه «كان ينكر على البدوي، ويقول له: إنك لا تصلي»^(١٦).

ولم تقف المخالفات المنسوبة إلى البدوي عند ترك الصلاة، بل تجاوزتها إلى سلوكيات غريبة نقلت عن أصحاب السير؛ فيذكر المؤرخ المقريزي في «السلوك لمعرفة دول الملوك» والحافظ السخاوي نقلاً عن أبي حيان الأندلسي أنه «كان لا يكشف اللثام عن وجهه»، «وأنه صدرت منه

أفعال استنكرها أهل العلم كترك الجمع والجماعات والجلوس في مكان خرب»^(١٧)، ويلبس عمامة حمراء وطمراً لا يخلعه حتى يبلى، وتصدر منه أفعال تتنافى مع ما أمر به الشرع من النظافة والتطهر، قال تعالى: ﴿وَتَيَّابَكَ فَطَهَّرْ﴾ [المائدة: ٤]، وقال ﷺ: «إن الله جميل يحب الجمال». فكيف يكون «قطباً» يُقتدى به من يهمل نظافته حتى تصدر منه الروائح في المسجد؟ إن هذا يشبه أحوال النساك المنقطعين عن الجمعة لا أحوال أئمة الهدى.

كما ذكر في كتب مناقبه أنه امتنع عن الزواج طوال حياته، وقال لأخيه لما حثه عليه: «تأمرني بالزواج وأنا موعود أن لا أتزوج إلا من الحور العين الحسان»، وهو كلام يخالف صريح السنة النبوية في الترغيب في النكاح^(١٨).

أما مسألة التأثير بالعقائد الباطنية أو التشيع، فقد أثارت جدلاً واسعاً بين المؤرخين؛ حيث تذكر كتب التراجم والتاريخ المتأخرة أن أصل أسرته ينتهي إلى المغرب العربي، وأن والده علي البدوي وأخاه الحسن كانا من العلويين الذين خرجوا من فاس إلى مكة ثم العراق، وأن البدوي «مرّ بالعراق وزار مشاهدها وأضرحتها» كقبور آل البيت وأضرحة الصوفية كأحمد الرفاعي والجيلاني، قبل أن يستقر في مصر في أواخر العصر الأيوبي وبداية العصر المملوكي^(١٩).

وهكذا يتبين أن مصطلح «القطب» ليس مجرد لقب تشريفي، بل هو منظومة عقدية كاملة تمنح المخلوق ما هو من خصائص الله عز وجل: التدبير، والتصريف، وقسمة الأرزاق، وتحديد الآجال، والتأثير في القلوب، والإحياء والإماتة. والبدوي، بصفته «قطب أقطاب زمانه»، هو تجسيد حي لهذا المصطلح، وقد أظهرت الترجمة النقدية -المعتمدة على شهادات ابن دقيق العيد وابن حجر الهيتمي والمقريزي والسخاوي- أن الصورة الأسطورية للبدوي لا تصمد أمام الوثائق التاريخية.

وإن محبة الأولياء الصادقة تقتضي إنزالهم في مرتبتهم التي أنزلهم الله إياها: عبادة صالحين، لا أرباباً مدبرين، ولا أقطاباً يصرفون. والله وحده هو «غياث المستغيثين»، وإليه وحده تُصرف الدعوات، وعليه وحده التكلان.

١٠ - القطب التنبوي السيد أحمد البدوي، أبو اليزيد، دار الجيل للنشر والتوزيع، القاهرة، ط ١.

١٩٩٢م، ص ٨٩.

١١ - الجواهر السنية في المناقب الأحمديّة، المطبعة الأميرية ببولاق، القاهرة، ١٢٧٧هـ، ص ٨٨.

١٢ - الطبقات الكبرى [إلى اللع التوفيقية]، دار الكتب العلمية، بيروت، ط ١، ١٤١٨هـ، ١٨٤٨.

١٣ - المصدر السابق، ١٨٣٨-١٨٧٠.

١٤ - الجواهر السنية في المناقب الأحمديّة، ص ٨٨.

١٥ - الفتاوى الحديثية، دار الفكر للطباعة والنشر، بيروت، ص ٢١١.

١٦ - شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، ط ١، ١٤٠٦هـ.

٦٠٥/٧.

١٧ - السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت.

١، ١٤١٨هـ، ٣٤٥/١؛ الضوء اللامع لأهل القرن التاسع، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٥٠/٩.

١٨ - الضوء اللامع، ١٥٠/٩؛ شذرات الذهب، ٦٠٥/٧.

١٩ - طبقات الأولياء، ابن الملقن، تحقيق: نور الدين شريعة، دار الفضيلة، القاهرة، ط ٣.

١٤١٥هـ، ص ٤١١؛ شذرات الذهب، ٦٠٤/٧.